في مقدّمها الحياء والمحبّة
ما ينبغي للمرء تجاه الله، ورسوله، وأوصيائه

السيّد محمّد باقر السيستاني*

ينبغي للإنسان أن يستحضر الله سبحانه في جميع أحواله، متعلّقاً به بعلائق أربع، هي من أصول الصفات والفضائل التي فطر الإنسان عليها:

الأولى: الشعور بالشّكر والامتنان، بما أنعم عليه من عظيم نِعمه وإحسانه، فإنّما المرء في أصله صنيعة من صنائع الله، وحياته من فيض إنعامه، ولو استشمرها أدّى إلى سعادة دائمة، كما أنّ المشهد الذي يعيش فيه بصنوف نِعمه كلّها يعود إليه سبحانه فهو صاحبه وخالقه، وإنّما مثل الإنسان فيه مثل امرئٍ حلّ في مضيف آخر يستمتع بضيافته ويعيش بين صنوف نعمته، فهو في جميع أحواله في هذا المضيف يعيش مشاعر الشكر لصاحبه والامتنان له، ويبدي ذلك له كلّما صادفه، وإنّ الله سبحانه أولى بهذا الصنيع من غيره، إذ هو أصل كلّ إحسان وأساس كل إنعام، فكلّ مَن في الكون جنوده، وكلّ نعمة هي من خزائنه.

الثانية: حسن الافتقار إليه سبحانه، كما هو واقع الحال، فإنّ وجود الخلق كلّه مرهونٌ بمدده، فهم رهائن فاقة إلى فضله ومعروفه، يملك من أمورهم ما لا يملكونه، ويقدر من شؤونهم على ما لا يقدرون عليه، كما قال عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

ويترتّب على هذه الصفة رجاء المرء إياه في جميع ما يصبو إليه في الدنيا والآخرة، وإشفاقه من قطيعته وعقابه وعدله فيهما. وهذه الصفة ممّا فُطر الإنسان عليها على حدّ مفطورية الطفل الرضيع على الافتقار إلى إعانة أمّه وعواطفها، ولئن كانت الأم مجهّزة بإمكانات وعواطف تناسب افتقار الطفل إلى أمّه، فإنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ عباده أيضاً، وقد ضمن لهم الرحمة والشفقة والرأفة على ما يعلم من صلاحهم، كما قال سبحانه عن المؤمنين: ﴿..يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ..﴾، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ..﴾، وقد جاء في الآيات الشريفة وصفه تعالى بأنّه رحيمٌ رؤوفٌ ودودٌ بالناس عامّة، والمؤمنين به سبحانه خاصّة.

الثالثة: مراعاة الأدب بالنسبة إليه سبحانه، والأدب هو التواصل اللائق مع الآخرين، وهو ممّا فُطر عليه الإنسان، حيث إنّ كثيراً من التزاماته تجاه الآخرين ضربٌ من الأدب الذي يفرضه التواصل معهم حسب مراتبهم ولياقاتهم، وعلى المرء في محضر الله سبحانه أن يتأدّب بما يليق بعظمته وقدرته بالتواضع لديه، والخضوع بين يديه، والاستحياء منه، كما قال عزّ من قائل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ..﴾.

الرابعة: محبّته سبحانه، فإنّه مستجمعٌ لجهات المحبّة وأسبابها؛ فهو أصل الإنسان وخالقه، والمنعِم عليه، والمتولّي لأموره، والحاضر معه في جميع أحواله، فهو أولى بالمحبّة من الآباء والأصدقاء وسائر المحسنين، كما قال سبحانه: ﴿..وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ..﴾.

فعلى المرء تحقيقاً لذلك كلّه أن يسعى في تحصيل رضاه سبحانه، فإنّه السعادة العظمى والغاية القصوى، ويتجنّب سخَطه، فإنّه الشقاء المقيم كما قال عزّ وجلّ: ﴿..وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ..﴾، وقال: ﴿..لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

---

* أستاذ في الحوزة العلمية بالنجف الأشرف، والمقال من كتابه (أصول تزكية النفس وتوعيتها)

ولا يغيبنّ سبحانه وتعالى عن بال المرء بالنظر إلى ظاهر هذه الحياة، حيث أجرى أمورها على سنن محدّدة ونظام دقيق، فربّما عاد ذلك حجاباً عن الحقيقة بدل أن يكون منبّهاً عليها، فظنّ جريان الأمور فيها على هذا النظام بطبيعتها ولا عامل مدبّر لها وراءها، مع أنّ في بديع نظمها ودقّة تكوينها ما يدلّ على خالقها وبارئها، وسوف ينكشف للمرء هذا الحجاب بعد الرحيل من هذه الحياة، وفي الآخرة حيث يظهر ما كان باطناً وينجلي ما كان مشتبهاً، وأنّ المُلْك كلّه لله سبحانه وتعالى.

... قائداً نَقتدي بهُداه

وينبغي للإنسان أن يتّصف تجاه رسوله -مضافاً إلى الإذعان برسالته- بصفاتٍ خمس:

الأولى: تصديقه في ما بلّغه عن الله سبحانه.

الثانية: إطاعته في ما أمر به، حيث أمر اللهُ سبحانه وتعالى بطاعته.

الثالثة: التأسّي به في منهجه وسلوكه في الحياة، فإنّ الله جعل الأنبياء مثلاً لسائر خلقه وأمر بالاهتداء بهَدْيهم، كما قال سبحانه في عيسى بن مريم: ﴿..وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. وقال بعد ذكر جمعٍ من الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ..﴾. وقال عزّ من قائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام، في بعض كلامه، بعد وصف إعراض النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، عن الدنيا والأمْر بالتأسّي به: «**فما أعظمَ مِنّةَ اللهِ** عندَنا حين أنعمَ علينا به سلفاً نتّبعه وقائداً نطأ عَقِبَه». (نهج البلاغة: ٢/ ٦٠)

وقال عليه السلام عن نفسه: «**ألا وإنّ لكلّ مأمومٍ إماماً يقتدي به، ويَستضيء بنُور عِلمه**» (نهج البلاغة: ٣/ ٧٠).

وإيّاك أن تعتذر عن التأسّي بهم برفعة مكانهم وعلوّ شأنهم، فإنّ ذلك كلمة حقّ يراد بها باطل، وهي من تلبيس الشيطان وأحابيله، فراراً عن العمل وهروباً عن الاقتداء، ولا محيص للمؤمن من أن يمشي في صراطهم ويقتدي بفِعالهم ويطأ عقبهم، فإن لم يستطع بلوغ مبلغهم واللّحاق بهم، فإنّ عليه أن يعذر الله من نفسه بمتابعتهم بوَرعٍ واجتهاد وعفّة وسداد.

الرابعة: إحلاله بالمحلّ الذي أحلّه اللهُ سبحانه من حيث صفاته الكريمة ومقامه عنده تعالى، من غير أن يزيد فيه أو ينقص عنه.

الخامسة: رعاية الأدب معه حسب ما يناسب مقامه الكريم، شكراً لموقعه في هداية الخلق وتبليغ رسالة الله سبحانه إلى خلقه.

ويجب للمصطفَين من عترته مثل ما يجب له صلّى الله عليه وآله وسلّم، عدا مقام النبوّة ومقتضياته.

لا يغيبنّ سبحانه وتعالى عن بال المرء بالنظر إلى ظاهر الحياة، فيتوهّم جريان الأمور فيها على هذا النظام، بطبيعتها، من غير مدبّرٍ وراءَها

إيّاك أن تعتذر عن التأسّي بالمعصومين برفعة مكانهم وعلوّ شأنهم، فإنّ ذلك من تلبيس الشيطان وأحابيله، فراراً عن العمل وهروباً عن الاقتداء

من موانع تهذيب النفس
التهاون في الأحكام الشرعية

الشيخ حسين كَوْراني*

المراد بـ«التهاون في الأحكام الشرعية» هو عدم الوقوف عند حدود الله تعالى التي حدّدها، سواءً أكان بالأخذ بالأقلّ، أو الأكثر.

وأوضح مظاهر التهاون بالأحكام الشرعية، الفصل بينها وبين تهذيب النفس، بمعنى أنّ مَن يدرسها و«يتفقّه» في الدين، إذا تنبّه إلى أهمية النفس، يبدأ بالبحث عن درس الأخلاق، وعن «الأستاذ»، وعن النصائح والمواعظ، وعن البرنامج العملي، والأوراد والأذكار، في غفلة مطبقة عن أنّ كلّ ما يبحث عنه يتحقّق، بأجلى صوره، إذا رفع مستوى التزامه بالأحكام الشرعية.

أمّا مَن لا يدرس الأحكام، ويتنبّه إلى عظيم منزلة التحلّي بمكارم الأخلاق؛ فإنّ أمره في الإعراض عن الأحكام الشرعية أوضح، وإنْ كان الأوّل أشدّ غرابة، وربما خطورة.

الفصل بين الوسيلة والهدف

تتّضح الأضرار الجسيمة الناشئة من هذا الفصل، بالتأمّل في أنّ الهدف من بعثة المصطفى الحبيب، تتميم مكارم الأخلاق. أي أنّ جميع الأنبياء كانوا معنيين، بالدرجة الأولى، بمكارم الأخلاق، وخاتَمهم معنيّ بذلك بصورة أكمل وأتمّ.

وبالتالي، فإنّ جميع الأحكام الشرعية التي جاء بها الأنبياء تصبّ في هدف بناء الشخصية الاجتماعية الموحّدة المتحلية بالأخلاق الفاضلة. وفي هذا السياق تشكّل الأحكام الشرعية التي جاء بها رسول الله محمّد صلّى الله عليه وآله، الوسيلة الأفضل لبناء هذه الشخصية المتحلّية بأفضل مراتب الأخلاق التي يمكن أن تبلغها البشرية.

وهذا يعني بوضوح استحالة الوصول إلى مكارم الأخلاق المحمّدية إلّا من خلال الالتزام الجاد والواعي بتطبيق الأحكام في كلّ صغيرة وكبيرة، وأنّ الفصل بينهما هو في بعض أبعاده فصلٌ بين الوسيلة والهدف.

تقديم غير الأحكام عليها

ثمة ظاهرة خطيرة أخرى، غير ما تقدّم، هي القناعة بأنّ غير الأحكام أكثر أهمية منها في تهذيب النفس، بمعنى أن يهتم الشخص بالتفكير بالموت، ومطالعة كُتب الوعظ، وصولاً إلى الاهتمام بالعرفان والحديث عن مصطلحات السير والسلوك، أو «الكمال المطلق»، و«الفناء في الله»، و«جمْع الجمع» وما شابه، وهو لم يُتقن بعد الأحكام التي يكثر ابتلاؤه بها! ولا هو بصدد تعلّمها!! ما يجعله -إذا بقيَ كذلك- مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. [الكهف:١٠٣-١٠٤]

التصوّف والعرفان المذمومان

من المهمّ جداً التأمّل في ألوان تهذيب النفس المختلفة عبر العصور، لنكتشف بعمق أنّ المائز بين الحقّ والباطل كان دائماً في التزام الحكم الشرعي وعدم التزامه.

إنّ التصوّف المذموم والعرفان المذموم هو ما لا يُبنى على قاعدة التقيّد بمنتهى الدقة بأحكام الشرع الشريف. والعرفان الممدوح هو المبنيّ على التقيّد التامّ بكلّ الأحكام الشرعية.

* مضمون محاضرة لسماحته في حوزة الإمام الخميني (دمشق، ٨ ذو القعدة ١٤٢٣)

فلو بلغ شخص مرتبة تبدو متقدّمة جداً في الكشف والكرامات، ولم يكن شديد التقيّد بالأحكام الشرعية، فكشفُه وكراماته مردودان عليه لا قيمةَ لهما في الميزان الإلهيّ، الذي لا وزنَ له غير الحقّ، ولا حقّ إلّا على أساس أحكام الله تعالى.

«**دقة الالتزام بالحكم الشرعيّ**» هو عنوان المعركة حامية الوطيس التي خاضها فقهاء مدرسة أهل البيت، وما يزالون، ضد التصوّف والعرفان بصورهما المذمومة التي كانت، وما تزال، منشأ أخطار كبيرة.

تلك حدود الله

بالتأمّل في القرآن الكريم، تتّضح المكانة التي أولاها الله تعالى للأحكام الشرعية، فهي حدود الله تعالى، وهو تعبيرٌ بالغ الدلالة.

قال سبحانه: ﴿..تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. [البقرة:٢٢٩] [انظر أيضاً: البقرة:١٨٧؛ النساء:١٣-١٤؛ الطلاق:١]

وحول تعريف «الحدّ».. ورد في (تفسير التبيان:٢/ ٢٤٧) للشيخ الطوسي: «وأصلُ الباب المنْع. والحدّ: نهايةُ الشيء التي تمنع أن يدخلَه ما ليس منه، وأن يخرج عنه ما هو منه».

وكما لا يجوز الاهتمام بالأخلاق والتهاون في الأحكام، لا يجوز العكس، أي الاهتمام بالأحكام وإهمال الأخلاق وتهذيب النفس.

قال الشيخ محمّد المشهدي في (كنز الدقائق:١/ ٥٦٤)، مفسّراً الآية المتقدمة: «عقّب النهيَ بالوعيد مبالغةً في التهديد. واعلم أنّ كلّ ما حدَّ اللهُ تعالى: فالإفراط فيه والتفريط كلاهما تعدٍّ. و كذلك كلّ ما يفعله أهل الوسوسة في الشرع بغير مأخذ، ويسمّونه احتياطاً وتقوى، تعدّ عن حدود الله، ومَن يفعله ظالم..».

وقال العلامة الطباطبائي في (الميزان:٢/ ٢٣٤) في تفسير الآية إياها: «..الاقتصار في العمل بمجرّد الأحكام الفقهية والجمود على الظواهر ... فإنّ في ذلك إبطالاً لمصالح التشريع، وإماتةً لغرض الدين وسعادة الحياة الإنسانية، فإنّ الإسلام، كما مرّ مراراً، دينُ الفعل دون القول، وشريعة العمل دون الفرض (والتنظير)، ولم يبلغ المسلمون إلى ما بلغوا من الانحطاط والسقوط إلّا بالاقتصار على أجساد الأحكام، والإعراض عن روحها وباطن أمرها..».

في وصايا العلماء

يقول المقدّس الشيخ حسين قلي الهمداني: «لا يخفى على الأخوة في الدين أنّه لا طريق إلى القُرب من حضرة ملك الملوك جلّ جلاله غير الالتزام بالشرع الشريف في جميع

يستحيل الوصول إلى مكارم الأخلاق المحمّدية إلّا من خلال الالتزام الجادّ بتطبيق الأحكام الشرعية

من المظاهر الخطيرة الاهتمامُ بالمصطلحات العرفانية قبل إتقان الأحكام الفقهية

الحركات، والسكَنات، والتكلّمات، واللّحظات، وغيرها.

والسيرُ بالخرافات الذوقية... كما هو دأب الجهّال والصوفية، خذلهم الله جلّ جلاله، لا يُوجب إلّا بعداً، حتى أنّ الشخص إذا التزم بعدم حفّ الشارب... فإنّ عليه أن يفهم، إذا كان مؤمناً بعصمة الأئمّة الأطهار صلوات الله عليهم، أنّه سيبتعد عن حضرة الأحدية. وهكذا في كيفية الذّكر بغير ما ورد عن السادات المعصومين عليهم السلام.

بناءً على هذا يجب أن يقدّم الشرع الشريف ويهتمّ بكلّ ما جاء الاهتمام به فيه. وما استفدته -أنا الضعيف- من العقل والنقل هو أنّ **أهم الأشياء لطالب القُرب الجِدّ والسعي التام في ترك المعصية**.

وما لم تؤَدَّ هذه الخدمة فلا ذِكرُك ينفع حال قلبك بأيّ نفع، ولا فِكرك، ذلك... وإذا تحقّق عندك أنّ ترك المعصية أول الدين وآخره، ظاهره وباطنه، فبادر إلى المجاهدة..».

ويختم الشيخ الهمداني رضوان الله عليه بالقول: «الحاصل، لا طريق إلى القُرب، إلّا بشرعٍ شريف، في كلّ كليّ وجزئيّ».

(تذكرة المتّقين: ص ١٨٥ و١٩١)

النتائج

ما يريد هذا الحديث أن يخلص إليه، هو التالي:

* التعامل مع الأحكام الشرعية، من منطلق أنها البرنامج العبادي الوحيد الذي يُمكّن من الوصول إلى تهذيب النفس والتحلّي بمكارم الأخلاق المحمّدية، بمعنى أن كلّ برنامج عبادي لا ينطلق منها ولا يهتدي بهُداها فليس من الإسلام بشيء، ويتلخّص هذا البرنامج العبادي الربّاني بكلمتين: «**تركُ المعاصي**».

* يضاف إلى ذلك أصلٌ أصيل، هو أنّ بناء التديّن على أساس حبّ الله تعالى، يتلازم مع حبّ ما يحبّه، وإن لم يكن واجباً. وكراهية ما يكرهه، وإن لم يكن حراماً.

* إنّ نظرة في سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأهل البيت عليهم السلام، وأصحابهم الأبرار، والعلماء بالله تعالى، من فقهاء الإسلام، تكشف عميق حضور الأحكام الشرعية كلّها في حياتهم، الأمر الذي يُلزمنا بتطبيق أنفسنا مع ما كانوا عليه.

فتْكُ اللّسان بالقلب

يقول العالم الربانيّ الشيخ حسين قلي الهمداني:

«أيها العزيز... اللهُ الكريمُ الرحيم، جعلَ لسانَك مخزنَ جبلِ النور؛ أي ذِكرَ اسمِه الشريف، فمن عدم الحياء أن يكون مخزنُ السلطان ملوّثاً بالنجاسة وقاذورات الغِيبة والكَذِب والفُحش.... مخزنُ السلطان يجب أن يكون مملوءاً بالعِطر وماء الورد.

إذا لم تكن دقيقاً في المراقبة، فلن تعرف أيّة معاصٍ ترتكب... وأيّ جراحاتٍ مُنكَرة تُوقِعها في قلبك، بسيف لسانك وسنانه. إذا كنتَ لم تُقتل حتّى الآن، فذلك جيّد جداً».

(مختاري، سيماء الصالحين، ترجمة الشيخ حسين كوراني: ص ٨٧)